الفصل الأول :

استعلاء بالـــذات
أم
استعلاء بالإيمان ؟

إن هناك كثيرا من المعانى التى تفرض لنفسها حيزا فى ميدان العمل الإسلامى .. وتبرز لنفسها مكانًا فى واقعه العملى .. ومن ثم فهى تحتاج إلى أن تفرد بكلام .. يرسم حدودها ويشرح مضمونها .. ويحترز مما قد يلتبس بها .. حتى تزداد الحركة الإسلامية بصيرة على بصيرتها .. ونضجا إلى نضجها ، فتؤتى ثمارها طيبة صالحة بإذن ربها ، ونحن من هذا المنطلق سيكون حديثنا بإذن اللَّه عن معنى من هذه المعانى ، ومسألة من هذه المسائل ، يحدونا قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وهذه المسألة ، هى مسألة الاستعلاء بالإيمان .. والتى قد تختلط بالاستعلاء بالذات وما ينشأ عنه من كبر أو ظلم أو غيرهما ؛ فإنه مما لا شك فيه أن الإيمان يرتفع بصاحبه ويعلو ، حتى يصل به إلى أرفع الدرجات .. وذلك بحسب قوته فى قلب المؤمن .. حتى تفاضلت درجات أهل الجنة فى الجنة لتفاضل الإيمان فى قلوبهم ، يقول صلى اللَّه عليه وسلم : « إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف كما يتراءون الكوكب الدُرى الغابر

فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم »[1] ، فالعلو صفة لازمة للإيمان .. وسمة مصاحبة لأهل الإيمان ماداموا مؤمنين .. حتى وإن بدا لأهل الدنيا أن أهل الإيمان فى مهانة أو مكانة دنيوية وضيعة لضعف قوتهم .. أو لقلة عددهم وعدتهم ، أو لغلبة عدوهم وظهوره عليهم حتى وإن بدا ذلك كله إلا أنهم تبقى لهم المكانة العالية والدرجة الرفيعة .. يقول تعالى مخاطبا المؤمنين لما أصابتهم الهزيمة يوم أُحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

والعلاقة بين العلو والإيمان علاقة مطردة فى كل من الاتجاهين السالب والموجب ، فبوجود الإيمان يوجد العلو ، يزداد بزيادته وينقص بنقصانه ، وبانعدام الإيمان ينعدم العلو فيكون مع الكفر السفل ، وكلما زاد الكفر زاد السفل ، حتى كان شر الكفار وهم المنافقون فى الدرك الأسفل من النار : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] . ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾ [التين] .

(١) رواه البخارى [٣٢٥٦] واللفظ له ، ومسلم [١١/٢٨٣١] .

ويقول تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وإذا كان أهل الإيمان لهم العلو ، وأهل الكفر لهم السفل ، فإن هنالك أقواما اجتمع فيهم موجب العلو وموجب السفل ، وهم عصاة المؤمنين .. ولما كانت حسنة التوحيد غالبة على سيئة المعصية كانت الغلبة لموجب العلو ، فكانوا من أهل العلو .. ولكن بقدر ما ينقص من إيمانهم فهم فى سفل بالنسبة لأهل الإيمان الذين استكملوا الإيمان .

من تلك المقدمة السابقة .. نخلص إلى أن الاستعلاء بالإيمان هو صفة من صفات المؤمنين يمدحون بها ، ويندبون إليها ، ويثابون عليها .. وإذا كانت فى مقابلة المعصية لأمر اللَّه ، فهى واجبة عليهم ، باعتبارها دافعًا للطاعة الواجبة ومانعًا من المعصية المحرمة .

ولكن هنالك أناسًا قد فهموا الاستعلاء بالإيمان فهمًا خاطئًا .. فازدروا الناس واحتقروهم وأساءوا مخالقتهم بحجة أنهم أهل معصية أو أهل كفر .. وهنالك أناس ألبسوا الاستعلاء

بالنفس – وهو الكبر – ثوب الاستعلاء بالإيمان .. فلبسوا الحق بالباطل ، وزينوا المعصية بمسمى الطاعة .. وقد يتفق كل من هذين الفريقين فى الظاهر لاتفاق ممارستهم ؛ ولكن الذى يفرق بينهما ، ويميز بين حاليهما هو مكنون الصدور ، ومخبوء القلوب .. وإن كان كلاهما مخطئًا ، وثانيهما أشدُّ خطرًا ، من أجل ذلك نتوقف سويا لنطرح هذه الأسئلة ونناقش تلك المسألة :

أولًا : ما هى حقيقة الاستعلاء بالإيمان ؟!

ثانيا : هل معنى الاستعلاء بالإيمان المعاملة الحادة ، والشدة والغلظة على كل مخالف لمنهج الإسلام سواء كانت مخالفته مخالفة تامة برفضه والكفر به ، أم مخالفة لبعضه مع الإيمان والإقرار به ؟!

ثالثا : هل من الاستعلاء بالإيمان ، إهدار حقوق الناس وعدم الاعتبار ببشريتهم بحجة مخالفتهم للإسلام بالكفر أو بالعصيان ؟!

وقبل أن نجيب على هذه التساؤلات ، نقول : إن الاستعلاء بالإيمان إنما هو فى الحقيقة منبعث من العبودية للَّه ، ليس منبعثًا

عن حظ نفس ولا عن مس هوى .. وطالما أنه عبودية للّه فينبغى أن يكون فيه متابعة نهج اللّه ، وموافقة لسُّنة رسول اللّه ، فضلا عن وجوب تجريد القصد فيه بألا يبتغى فيه غير وجه اللّه فليست كل حماسة باسم الاستعلاء بالإيمان توافق تعاليم الإسلام .. وليست كل غضبة من عامل للدين ، هى غضبة من أجل الدين ، حتى تكون موافقة ومطابقة فى منشئها وتصريفها لما جاء به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكم من مستطيل على أناس يظن نفسه من أهل الاستعلاء بالإيمان ، ويزعم أنه يسعى لإظهار عزة الإسلام ، وإنما هو فى الحقيقة باحث عن ذاته ، ساع إلى عزة نفسه .. ومثل هذا يراه الناس جريئا ويصفونه بالشجاعة والبطولة ، حتى تجرى عليه سُّنة التمحيص ، فتنقلب الشجاعة خورًا ، والبطولة نكوصًا .. ولا يعز اللّه إلا من كان صادقًا فى إعزاز دينه ، مخلصًا فى نصرة كلمته . نسأل اللّه أن يحفظنا بفضله ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

وبعد هذه الكلمة اليسيرة نجيب على الأسئلة التى طرحناها آنفًا :

أولًا : ما هى حقيقة الاستعلاء بالإيمان ؟!

معنى الاستعلاء بالإيمان : طلب المكانة العالية للنفس ، بالترقى على درجات الإيمان .. ومعنى هذا أنه عمل وسعى وفق مقتضى الإيمان ، يترتب عليه علو النفس وارتفاعها .. ولكن هناك من يفهم الاستعلاء بالإيمان على أنه طلب المكانة العالية للنفس بسبب ما هى عليه من إيمان .. ومعنى هذا أن ترى النفس استحقاقها العلو على غيرها لكونها مؤمنة ، ويلزم من هذا أن ينظر المؤمن لنفسه على أنه أعلى مقامًا من المخالف للإيمان بكفر أو عصيان ، فكأنه يقول بلسان حاله : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف : ١٢] . وهذه المقالة الإبليسية ، ولا شك هى عين العجب والكبر ، وهو مناف للإيمان .. فدل ذلك على أن هذا الفهم فهم خاطىء ويتعين الفهم الأول الذى ذكرناه .

هذا ولا يفهم من كلامنا أن المؤمن والكافر لا تفاضل بينهما ؛ فإن هذا لا يتصور أن يكون مرادًا من الكلام ، فإن المؤمن – ولا شك – خير من الكافر ، بل إن المؤمن فيه كل الخير ، والكافر لا خير فيه مادام المؤمن على إيمانه ، والكافر على كفره ،

ولكن هناك فارقًا بين هذا الحكم الذى هو مقارنة بين الكفر والإيمان ، وبين الحكم على ذوات الأشخاص مجردة عن الكفر والإيمان فلا يجوز للإنسان أن ينظر إلى ذاته أنه أفضل من غيره ، وإن كان ذلك الغير كافرًا ؛ فإنه لا يدرى ما يختم له به ، وما يختم لذلك الكافر به ، فالعبرة بالخواتيم .

وكذلك القول بين المؤمن والفاسق من أهل الملة .. بيد أن الفاسق قد خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا .. ففيه الخير والشر .. والكافر لا خير فيه ، والفاسق وإن مات على فسقه فى مشيئة اللَّه ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ، والكافر فى النار إذا مات على كفره .

ويمكن تحرير معنى الاستعلاء بالإيمان ، على أنه إعلاء كلمة الإيمان .. وهذا مقتضى التعريف السابق الذى قررناه ، فإن العمل بمقتضى الإيمان يتضمن إعلاء كلمة الإيمان ، وإنما أردنا تحرير معنى الاستعلاء بالإيمان على هذا المعنى الأخير ليكون ذلك أوضح فى التفريق بين المعنى الصحيح والفهم الخاطىء له ؛ وكذلك يمكن صياغة الفهم الخاطىء للاستعلاء بالإيمان على

أنه الاستعلاء بالذات ، وبهذا يحصل لنا الفرقان بين المعنى الصحيح للاستعلاء بالإيمان ، وبين الفهم الخاطىء له .. فمن كان يعمل لإعلاء كلمة اللَّه ونصرة منهج الإسلام ، فهذا هو المستعلى بإيمانه ، ومن كان يعمل غضبة لنفسه وإعلاء لذاته ، فهذا هو المستعلى بذاته .

ولنتأمل سويًّا قول اللَّه عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ ﴾ [التوبة : ٤٠] . وكان يتوقع أن يقول سبحانه : « وكلمة الذين آمنوا هى العليا » لتناسب المقابلة فى السياق ، ولكن الآية جاءت كذلك ؛ لأن العلو إنما هو لكلمة اللَّه ولمنهج اللَّه وليس لذوات المؤمنين المجردة نعم ، إن اللَّه يكافىء المؤمنين جزاءً من جنس عملهم ، فكما أعلوا كلمة اللَّه ، يعلى اللَّه قدرهم ويرفع شأنهم .. ولكن هذا العلو إنما هو منحة من اللَّه لهم ، لا أنه سعى منهم لإحقاقه لأنفسهم ، بل قد نفى اللَّه عن المؤمنين إرادة العلو فى الأرض فقال : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص : ٨٣] .. وإنما استمد المؤمنون علو

قدرهم ورفعة شأنهم من إيمانهم باللَّه العلى الأعلى ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] . وأما العلو المطلق فلا يكون إلا للَّه العلى العظيم سبحانه وتعالى .

فمن كان سعيه لإعلاء كلمة اللَّه ، ولو كان على نفسه أو الوالدين والأقربين ؛ فذلك المستعلى بإيمانه ، وأما من كان سعيه لتظهر كلمته ، وترى مكانته ، أو يقضى فى غير رضا اللَّه مأربه ويطيع فى معصية اللَّه هواه ؛ فذلك الذى غلبته نفسه ، وصرعه هواه ، حتى هوى فى الحضيض . نسأل اللَّه التوفيق والسداد ، ونعوذ باللَّه وبكرمه من الخذلان .

ثانيًا : هل معنى الاستعلاء بالإيمان الحِدة والغِلظة ؟!

هل معنى الاستعلاء بالإيمان الحدة فى المعاملة والشدة والغلظة على كل مخالف لمنهج اللَّه ، سواء كانت مخالفته مخالفة تامة برفضه والكفر به ، أم مخالفة لبعضه مع الإيمان والإقرار به ؟!

الحق أن هذه المسألة بقليل من النظر فى سيرة النبى صلى اللَّه عليه وسلم .. ووقفة متأنية لفهم روح الإسلام تكون جلية واضحة ، ولذا فدعنا - أخى الحبيب - نتأمل سويًا فى سيرة

النبى صلى اللَّه عليه وسلم ، ولنعش معًا فى ظلال هذه المواقف منها :

○ جاء عتبة بن ربيعة يكلم النبى صلى اللَّه عليه وسلم ليثنيه عن دعوته ، ويعرض عليه المال والسيادة والملك والطب فى مقابل ذلك .. فأنصت له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى فرغ . فقال له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ »[1] قال : نعم . قال : « فاسمع منى » ، فقرأ عليه آيات من سورة فصلت ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .. فانظر يرحمك اللَّه إلى الأدب النبوى العالى ، والذى لا يدانيه أدب ، ولا يساميه خُلق .. انظر كيف أنصت صلى اللَّه عليه وسلم إلى عتبة ، وهو من زعماء المشركين ، رغم أنه يعلم أنه جاء يريد أن يثنيه عن دعوته ويصده عن دينه ؟! وانظر كيف يرد صلى اللَّه عليه وسلم على عتبة مخاطبًا له بكنيته ، متلطفًا فى عبارته ؟! ومعلوم أن المخاطبة

(١) الجامع لأحكام القرآن « القرطبى » [١٥/٣٣٨] بنحوه .

بالكنية هى نوع احترام وأدب .. فهل كان ذلك الأدب ، وذلك التلطف واللين منافيًا للاستعلاء بالإيمان ؟!

○ فى قصة إسلام عدى بن حاتم ، كما أوردها ابن كثير فى البداية والنهاية .. جاء فيها : قال - أى عدى بن حاتم - : فخرجت حتى أقدم على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وانطلق به إلى بيته ، فواللَّه إنه لعامد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته فوقف لها طويلًا تكلمه فى حاجتها . قال : قلت فى نفسى : واللَّه ما هذا بملك . قال : ثم مضى بى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إلى ، فقال : « اجلس على هذه » ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها . قال : « بل أنت » ، فجلست وجلس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بالأرض . قال : قلت فى نفسى : واللَّه ما هذا بأمر ملك ... إلخ . القصة . والتى كان فيها إسلام عدى .. فتأمل يرحمك

اللَّه فى هذا المشهد الذى يعجب له التاريخ ، وتتصاغر أمامه الحضارات ، فهذا رسول اللَّه الذى شرفه اللَّه على العالمين ، وفتح له الفتوح العظيمة حتى دان له العرب ، وهابه بعد مؤتة العجم .. ومع هذا السؤدد العظيم ، والسلطان المكين ، والمجد الرفيع يدخل عليه عدى بن حاتم وليس من قومه ، ولا على دينه ، بل إنه بالأمس القريب كان فارًا من جنده ، منحازًا إلى أمثاله من عدوه ويسلم عليه ، ويعرفه بنفسه ، فيقوم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من مجلسه وينطلق بعدى إلى بيته ، ويعامله معاملة ضيفه ، لا معاملة رأس من رءوس عدوه ، ثم يبالغ صلى اللَّه عليه وسلم فى إكرامه رغم أن صليبه كان على صدره - كما ورد فى روايات أخرى - فيناوله رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الوسادة ليجلس عليها ، ويجلس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على الأرض ، ويراجعه عدى فى ذلك ، فيأبى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلا أن يجلس عدى على الوسادة ، ويجلس هو صلى اللَّه عليه وسلم على الأرض .. فماذا بعد ذلك من التواضع ؟! وماذا بعد ذلك من الإحسان

والكرم ؟! رغم كفر عدى وقتها ، ورغم أن صليبه على صدره ، ورغم أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم متمكن منه ، مسيطر عليه وعلى قومه ، فضلًا عن مقام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فهل كان ذلك كله من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم منافيًا للاستعلاء بالإيمان ؟! أم أنها الحقيقة الساطعة ، التى لا غيم معها ، ولا حجاب دونها ؟! وهى أنه لا تنافى بين معاملة الكفار بالإحسان ، وبين الاستعلاء بالإيمان .. ولا تلازم بين الغلظة والشدة ، وبين الإستعلاء بالإيمان .. هذا ومما لا خفاء فيه ، أن الأمر إذا كان كذلك مع الكفار والمشركين فهو مع عصاة المسلمين من باب أولى .

○ فى غزوة خيبر ، استعمل النبى صلى اللَّه عليه وسلم على السبى بلالًا .. فمر بلال بالسبى على قتلاهن فلما رأينهم ، علت أصواتهن بالبكاء والعويل .. فلما رأى النبى صلى اللَّه عليه وسلم ذلك قال : « أنزعت من قلبك الرحمة يا بلال »[1] فيالها من أخلاق !! وياله من دين !! نعم إنهن مشركات ،

(١) انظر : السيرة النبوية لابن كثير [٢/٥٥٧] .

أخذن فى القتال ، ولكن الإسلام لم يأت ليحرق القلوب ، أو يفت الأكباد ، وإنما جاء بالرحمة ، ولم يبعث رسوله إلا رحمة للعالمين .

فهل الرحمة بهؤلاء المشركات كانت منافية للاستعلاء بالإيمان ؟! أم أنها هى من صميم الإيمان ، ومن طبيعة رسالة الإسلام ؟!

إن بلالًا رضى اللَّه تعالى عنه حين غفل عن مراعاة مشاعر هؤلاء السبايا .. سواء كان ذلك عن عدم تنبه أو قصد منه ، أو كان عن إهمال منه لمشاعرهن لكونهن غير مسلمات .. حين فعل ذلك ، جاءت كلمات النبى صلى اللَّه عليه وسلم مقرعة لبلال تقريعًا شديدًا .. حتى صورته بصورة من ليس فى قلبه رحمة ؛ وإنما أريد به أن فعله ذلك كان منافيًا للرحمة ، وهذا يبرز لنا أخلاق الإسلام ، والتى بها ساد الخليقة ، وعم أرجاء البسيطة ، والتى كانت سببا فى رفعة المسلمين وعلوهم .. فما أحوج الدعاة والعاملين للإسلام اليوم أن يدركوا هذه الحقيقة .. وأن يتعلموا كيف يعاملون الناس مسلمهم وكافرهم ؟ لئلا

يكونوا هم أنفسهم معول الهدم لدعوتهم وسبب ضياع قضيتهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

من الشواهد السابقة ، نخلص إلى تلك الحقيقة .. وهى أن الاستعلاء بالإيمان ليس معناه الحدة ولا الشدة ولا الغلظة على العصاة سواءً كانوا كفارًا أم من المسلمين .. وأنه لا ينافى الرحمة بهم ، ولا الإحسان إليهم .

فإن قيل : فإن اللَّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] . وأن هنالك مواقف عديدة فى السيرة فيها الإغلاظ على المشركين .. مثل قول أبى بكر الصديق لعروة بن مسعود : امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟! وذلك حين قال عروة للنبى صلى اللَّه عليه وسلم : أى محمد ، أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟! وإن تكن الأخرى ، فواللَّه إنى لا أرى وجوها ، وإنى أرى أوباشًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك »[1] .

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخارى [٢٧٣٤] عن مروان بن الحكم .

○ أجيب على ذلك ، بأن المقام فى الآية وفى موقف أبى بكر مقام خاص .. فالآية تتحدث فى مقام الجهاد والقتال ، وهذا ولا شك مستلزم للغلظة والشدة ، وهل فوق ضرب الرقاب وإزهاق الأرواح من غلظة ؟! وموقف أبى بكر كان فى مقام الحرب النفسية المضادة ، فإن عروة بن مسعود لما قال ما قال - وكان إذ ذاك لا يزال مشركًا - قصد بذلك النيل من معنويات المسلمين ، والتأثير النفسى على قائدهم ؛ ليؤثر بذلك على قراره لمصلحة المشركين الذين أرسلوا عروة إلى النبى صلى اللَّه عليه وسلم ، وهكذا كل موقف للصحابة رضوان اللَّه تعالى عليهم فيه الشدة والغلظة على الكفار ، فذلك لمقام خاص يستوجب ذلك ، وهو بمثابة استثناء من القاعدة العامة والوضع الطبيعى الذى ينبنى على المخالقة بالحسنى واللين والرفق كما فى الحديث : « وخالق الناس بخلق حسن »[1] .

(١) رواه الترمذى [١٩٨٧] وقال الألبانى : حسن ، وأحمد فى المسند [١٥٣١٥] عن أبى ذر رضى اللَّه تعالى عنه . وقال الأرناؤوط : حسن لغيره .

ثالثًا : هل من الاستعلاء بالإيمان إهدار حقوق كل من خالف منهج الإسلام وعدم الاعتبار ببشريته ؟!

إنه مما ينبغى ألا يخفى على العاملين للإسلام ، أن شريعة الإسلام إنما قامت على ميزان العدل .. وأن أخلاق الإسلام إنما قامت على الإحسان ، وذلك مع الناس جميعًا مسلمهم وكافرهم ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] . فلم يسوغ الإسلام ظلم الناس لكفرهم ، ولم يمنع البر والإحسان إليهم .. فلا يعقل أن يأمر الإسلام بالعدل والإحسان إلى الناس ثم يأمر فى ذات الوقت بإهدار حقوقهم وإهمال بشريتهم بدعوى الاستعلاء بالإيمان .

ولولا ما وقع من ممارسات خاطئة ، تدل على التغافل عن ذلك أو إغفاله ، لما كنا بحاجة إلى سرد الشواهد المثبتة لذلك والبينة له .. وهذه بعض الشواهد التى لا تحتاج إلى مزيد بيان :

١ - قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

٢ - قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

٣ - قال صلى اللَّه عليه وسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »(١) .

وهذا النهى الشديد بلفظ اتقوا يدل على تحريم الظلم تحريمًا قاطعًا ، والتشديد فى منعه ، والتنفير منه ، وهذا النهى من النبى صلى اللَّه عليه وسلم لم يختص بالمسلم دون غيره ، وإنما جاء عامًا مطلقًا .. فلا يجوز ظلم المسلم ، وكذلك لا يجوز ظلم غير المسلم .

٤ - قال صلى اللَّه عليه وسلم : « من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا »(٢) .. وهذا صريح فى تكفل الإسلام بحفظ دماء المعاهدين رغم

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه البخارى [٣١٦٦ ، ٦٩١٤] عن عبد اللَّه بن عمرو رضى اللَّه تعالى عنهما .

كفرهم ، وهذا الحديث كافٍ لأن ينزجر به هؤلاء الذين يتهاونون بدماء غير المسلمين ويقدمون على سفكها بغير حق ، وهم يظنون أنهم يعملون بذلك لإعزاز الدين وإعلاء كلمة الإيمان .. وهم فى الحقيقة إنما يهدمون من حيث أرادوا البناء ، ويفسدون من حيث أرادوا الإصلاح .

٥ - جاء فى كتاب « الخراج » لأبى يوسف : أن عمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه رأى شيخًا يهوديًا يسأل الناس ، فسأله عن ذلك ، فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأته إلى سؤال الناس ، فذهب به إلى بيت ما المسلمين وأمر خازن بيت المال أن يصرف له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم ، وقال فى ذلك : « ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية شابًا ثم نخذله عند الهِرَم »[1] .. فانظر يرحمك اللَّه إلى رحمة الإسلام المتمثلة فى عمر الفاروق ، كيف رحم بشرية هذا الشيخ اليهودى ، ولم يرض لها ذل السؤال ، حتى فرض لذلك الشيخ اليهودى ولأمثاله حقًا لم يروا هم أنفسهم أنهم

(١) ذكره الإمام السرخسى فى « المبسوط » كتاب الزكاة [٣/٢] .

يستحقونه ؛ وإنما هو حق أوجبته لهم رحمة الإسلام ، الذى لم تقتصر رحمته على المسلمين ، بل شملت العالمين مسلمهم وكافرهم .. يقول تعالى فى وصف النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] فدين أوجب لأمثال هؤلاء ممن لا يدينون به ، مثل هذه الحقوق التى لم يروها هم لأنفسهم ، والتى تحمى كرامتهم الإنسانية ، كيف يتصور أنه يهدر حقوقهم أو يهمل بشريتهم ؟!

٦ - بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنه وتوليته عليها بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، استبق ابن لعمرو بن العاص مع ابن قبطى من أقباط مصر الذين ظلوا على نصرانيتهم ، فسبق ابن القبطى ابن عمرو ، فما كان من ابن والى مصر إلا أن أمسك بسوطه وضرب ابن القبطى قائلًا : خذها وأنا ابن الأكرمين ، فأشار الناس على القبطى بالذهاب إلى المدينة المنورة للشكاية إلى عمر بن الخطاب مما فعل ابن واليه .. فما كان من عمر رضى اللَّه تعالى عنه إلا أن أرسل يستدعى عمرو بن العاص وابنه ، فلما مثلا بين يديه أعطى الخليفة ابن

القبطى سوطًا وأمره أن يضرب ابن الوالى - ابن فاتح مصر - ، وبالفعل ضرب ابن القبطى ابن عمرو بن العاص بالسوط ، ثم قال له عمر : أدرها على صلعة عمرو .. فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنما ضربنا من ضربنا ، فأجابه عمر بن الخطاب : ما ضربك إلا بسلطان أبيه ، ولو شئت أن تضربه ما منعناك ، ثم التفت إلى عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنه وقال قولته الشهيرة : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا »[1] .

هذه القصة أبلغ من أن يُعلق عليها ، أو أن يبرز ما فيها من معان .. ولكنا نشير إلى ما فيها من شاهد على احترام الإسلام لبشرية غير المسلمين ، وتكفله بحمايتهم ، وتمكينهم من حقوقهم ، حتى ولو كانت على أمير من أمراء المسلمين العظام .. فانظر إلى هذه الإشارات :

(أ) ابن والى مصر يسابق ابن قبطى .. وهذا يبين سلاسة الإسلام فى بناء نسيج الحياة .. فهنالك تسابق بين المسلم والكتابى ولم يكن هذا منافيًا لعلو الإسلام ولا للاستعلاء بالإيمان .

(١) ذكره الحاكم فى المستدرك على شرط الصحيحين [٣/٧٠٦] .

(ب) إشارة الناس على القبطى بالذهاب إلى المدينة للشكاية إلى عمر بن الخطاب ، إن كان هؤلاء من المسلمين ، فهذا يدلنا على المنهج الإسلامى والنهج الذى سار عليه المسلمون فى معاملة غيرهم ممن يعيشون معهم فى بلادهم ؛ وأنهم يحترمون حقوقهم ، ويقدرون إنسانيتهم كل احترام وتقدير .. وإن كان هؤلاء الناس من غير المسلمين ، فهو أبلغ فى الدلالة على ذات المعنى السابق ، بل ويعتبر شهادة تاريخية ، على احترام الإسلام لحقوق غير المسلمين وتكفله بحمايتها .

(جـ) إرسال عمر بن الخطاب - خليفة المسلمين - إلى والى مصر وابنه يستدعيهما من مصر إلى المدينة ليقطع هذه المسافة الطويلة ، بما تتكلفه من مشقة السفر ، وإنفاق من بيت مال المسلمين يدلنا دلالة قوية وقاطعة على تعظيم الحقوق ، واحترام الكرامة البشرية ، والصيانة التامة لحريات الناس ، التى كفلها لهم الإسلام ، وإن كانوا على غير ملة الإسلام .

(د) تمكين عمر ابن القبطى من ابن عمرو بن العاص ، ودفعه السوط إليه ليضربه به كما ضربه به ابن عمرو ، ثم عرض عمر

ابن الخطاب على ابن القبطى أن يدير السوط على صلعة عمرو ابن العاص والى مصر وفاتحها .. هل هناك حفظ للحقوق واحترام للبشرية فوق هذا ؟! وهل كان ذلك إهانة للإسلام ، أو إعلاء للنصارى على المسلمين ؟! أم هل كان ذلك مخالفًا لعزة الإسلام ، أو منافيًا لاستعلاء الإيمان ؟! أم أنه عين الرفعة والكرامة للإسلام ، وعين الاستعلاء للمسلمين ؟!

(هـ) هذه الكلمة العظيمة الرائعة من عمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه والتى جاءت بصيغة الاستفهام الإنكارى « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟! » ، ومعنى هذا الاستنكار من عمر بن الخطاب ، أن استعباد الناس أمر منكر بيِّن الإنكار ، وأنه لم يكن يومًا من منهج الإسلام ولا من رسالته .. وأن كل ممارسة وقعت على هذه الصورة ، فالإسلام منها برىء .. فالإسلام لم يأت ليعبد بشرًا لبشر ، وإنما جاء بتوحيد العبودية للَّه وحده .. ويفهم من هذا أن الإسلام يحترم بشرية الإنسان ، ويتكفل له بحفظ حريته ، والدفاع عن كرامته .. فليس معنى سلطان المسلمين على غيرهم أن يعاملوهم معاملة العبيد ، فيهدروا حقوقهم ، ويمتهنوا بشريتهم .

(و) انظر كيف فرق عمر بن الخطاب بين الحقوق والمعاملات ، وبين العقيدة والعبادة ؛ فإنه ما من شك أن الإسلام يبطل عقائد هؤلاء النصارى وعبادتهم ، ومع ذلك فهو فى معاملته لأهل هذه العقائد والعبادات الباطلة لا يستكرههم على تركها ، ولا يبيح لأتباعه أن يستكرهوا أهل الكتاب على ترك عقائدهم .. وأما فى الحقوق والمعاملات فالجميع فيها سواء ، لا يميز المسلم على غيره .

وبعد أن استعرضنا هذه الشواهد الستة ، وهى غيض من فيض .. نستطيع أن نخلص إلى أن الإسلام يحترم حقوق غير المسلمين ، ولا يفرق ميزان عدله وأحكام قضائه بين مسلم وغيره فى إثبات الحقوق وإيصالها لمستحقيها .. ومن ثم ، فليس إهدار حقوق غير المسلمين وانتهاك بشريتهم من الاستعلاء بالإيمان فى شيء بل هو مناف للإيمان ، مناقض للعدل والقسط الذى قامت عليه السماوات والأرض .. وإذا كان الأمر كذلك مع غير المسلمين ، فهو مع عصاة المسلمين من باب أولى .

وإجمالاً لما سبق .. وبعد أن أجبنا على تلك الأسئلة التى طرحناها ، وعشنا مع سيرة النبى صلى اللَّه عليه وسلم وصحابته بما يعد تطبيقًا عمليًا للإجابة على ما فيها نقول : إن الحدة والشدة والغلظة على عصاة المسلمين وعلى غير المسلمين وإهدار حقوقهم وعدم الاعتبار ببشريتهم ليس من الاستعلاء بالإيمان فى شيء ، وإنما هو استعلاء بالذات بما يعنيه ذلك من العجب والكبر وما يجره من الظلم الذى حرّمه ربنا على نفسه وجعله بيننا محرمًا [1] .

وقبل الخاتمة .. يجدر بنا أن نذكر بعضًا من الصور المضيئة المشرقة التى سطرها التاريخ ، والتى حوت أروع نماذج الاستعلاء بالإيمان .. وأبرز مفهوم له وأوضح بيان لحقيقته ، وبحسبنا أن نذكر فى ذلك قصة ذلك الصحابى الجليل عبد اللَّه ابن حذافة بن قيس السهمى رضى اللَّه تعالى عنه فقد وجه

(١) رواه مسلم [٥٥/٢٥٧٧] عن أبى ذر رضى اللَّه تعالى عنه عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم فيما روى عن اللَّه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا .... » الحديث .

عمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه جيشًا إلى الروم وفيهم عبد اللَّه بن حذافة ، فأسره الروم ، فعرض عليه ملك الروم أن يتنصَّر ويشركه فى ملكه فأبى ، فأمر به فصلب وأمر برميه بالسهام فلم يجذع فأُنزل ، وأمر بقدر فصب فيها الزيت وأُغلى عليه ، وأمر بإلقاء أسير فيها فإذا عظامه تلوح ، فأمر ملك الروم بإلقاء عبد اللَّه بن حذافة فيها إن لم يتنصر ، فلما ذهبوا به بكى ، قال : ردوه . فقال : لم بكيت ، قال : تمنيت أن لى مائة نفس تلقى هكذا فى اللَّه .. تعجب منه ملك الروم ، وقال : قبّل رأسى وأنا أُخلى سبيلك . فقال : وعن جميع أسارى المسلمين ، قال : نعم . فقبل رأسه فخلى عنهم .. فقدم بهم على عمر ، فقَبَّل عمر رأسه [1] .

وفى رواية .. أن ملك الروم أمرهم أن يتركوه ويجعلوه فى بيت ومعه لحم خنزير مشوى وخمر ممزوج فلم يأكل ولم يشرب ، وأشفقوا أن يموت . فقال : أما إن اللَّه عَزَّ وجل قد كان أحله لى ، ولكن لم أكن لأشمتك بالإسلام .

---

(١) ذكره ابن حجر فى الإصابة [٤/٣] .

وقد اشتملت هذه القصة على أوجه متعددة وصور مختلفة للاستعلاء بالإيمان منها :

١ - رفض عبد اللَّه بن حذافة التنازل عن دينه معرضًا عن إغراء ملك الروم له بأن يشركه فى ملكه .. وفى هذا استعلاء بالإيمان عن زينة الدنيا وشهواتها .

٢ - ثبات عبد اللَّه على دينه عندما أمر به ملك الروم فصلب ، ثم أمر برميه بالسهام .. وكذلك ثباته حين أُلقى الأسير أمامه فى قدر الزيت المغلى حتى لاحت عظام الأسير ، ثم هدد بأن يلقى نفس المصير .. وفى هذا استعلاء بالإيمان على الحياة وعلى رهبة القتل وبشاعة التعذيب .

٣ - عدم أكل عبد اللَّه من لحم الخنزير وعدم شربه من الخمر حتى كاد يموت رغم علمه أن اللَّه أحلهما له للضرورة .. وفى هذا استعلاء بالإيمان أن يشمت به أعداء الإسلام .

٤ - بعد أن يئس ملك الروم من عبد اللَّه بن حذافة ، وعلم أنه لا يرتد عن دينه ، أراد أن يحفظ ماء وجهه ، فطلب من عبد اللَّه أن يقبل رأسه فى مقابل أن يخلى سبيله ، وهذا يبرز لنا

الحالة النفسية لملك الروم ، ويشعرنا بأن ملك الروم قد رأى عبد اللَّه فى مرتبة عالية ومنزلة سامية يتصاغر ملك الروم أمامها ويستشعر من نفسه الانهزام أمام هذا الثبات العظيم ، وهذا الاستعلاء الإيمانى الرائع ، فطلب ذلك الطلب من عبد اللَّه ، ليستعيد لنفسه الشعور بكبريائها الذى اندحر أمام ذلك الإيمان العظيم .

٥ - قبول عبد اللَّه أن يُقبل رأس ملك الروم فى مقابل الإفراج عنه وعمن معه من أسارى المسلمين ، وفى هذا استعلاء بالإيمان عن حظ النفس من أنفة وكبرياء .

ولعله يثور فى النفس تساؤل تعجبى .. كيف يكون عبد اللَّه الذى ثبت ذلك الثبات العظيم أمام القتل والتعذيب ، كيف يكون هو نفسه الذى يَقبل أن يُقبل رأس ملك الروم ؟! والحق أن الإجابة على هذا التساؤل هى التى يكمن فيها المفهوم الصحيح الواضح للاستعلاء بالإيمان والفرقان البين بينه وبين الكبر والاستعلاء بالنفس والذات .. والإجابة هى أن عبد اللَّه ابن حذافة رضى اللَّه تعالى عنه لم يكن يدور حول ذاته ، ولم تكن

تحركه عزة نفسه ، ولم يكن يكتنفه كبرياؤه وأنفته .. وإنما كان يدور مع الإسلام حيث دار ، وكانت حركته وفقًا لما يقتضيه إيمانه ، وتتطلبه مصلحة دينه ، ولم يكن يكتنفه إلا الهدى ودين الحق .. وهذا هو عين الاستعلاء بالإيمان وحقيقته .. فإيمانه أعلى فى نفسه من كل رغبة من رغباته ، وإن كانت حياته أو عزة نفسه .. فحينما تعارضت حياته مع إبقائه على دينه أهدر حياته وأبقى على دينه فكافأه اللَّه بأن حفظهما له جميعًا وأعزه وأعلى شأنه ورفع قدره .. وحينما تعارضت عزة نفسه وأنفته مع مصلحة الإسلام ، وذلك بأن يقبل رأس ملك الروم لإطلاق سراح أسارى المسلمين ، قدم مصلحة الإسلام على عزة نفسه ، فكافأه اللَّه بأن جمع له الخيرين ، فحرر أسارى المسلمين وقبل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رأسه وأحق على كل مسلم أن يقبل رأسه .

هكذا يكون حقًّا الاستعلاء بالإيمان .. فرضى اللَّه عن عبد اللَّه وأرضاه .

وفى الختام .. وبعد أن استعرضنا هذه القصة الرائعة .. نقول للعاملين للإسلام .. دوروا مع الإسلام حيث دار ، ولا تدوروا

حول ذواتكم .. فإن الاستعلاء بالإيمان هو إعزاز الدين لا إعزاز النفس .. وإن من سعى فى إعزاز دينه مخالفًا هواه أعزه اللَّه ، ففاز بالدين والدنيا .. ومن سعى فى إعزاز نفسه مخالفًا أخلاق دينه ، أذله اللَّه فخسر دينه ودنياه .

واحذروا أيها الدعاة أن تناقضوا الإيمان بدعوى الاستعلاء بالإيمان ، أو بزعم عزة الإسلام واحذروا أن يرى أحدكم لذاته فضلًا على غيره ، وأن يرى نفسه خيرًا من غيره .. فلا يدرى ما يختم له به ، ولا ما يختم لذلك الغير به .. بل الحذر كل الحذر أن تكون رؤية النفس والاستكبار على الخلق سببًا فى الفتنة فى الدين ، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء (١) .

اللَّهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .. اللَّهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك .. اللَّهم يا مصرف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

---

(١) رواه مسلم [١٧/٢٦٥٤] عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضى اللَّه تعالى عنهما .